

\* نص الخطبة \*

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد:

أيها الناس اسمعوا قولي، فإنّي لا أدري، لعليّ لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبدًا.

أيها الناس: إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟

وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. ألا وإنّ كلّ شيء من أمر الجاهليّة تحت قدميّ موضوع، ودماء الجاهليّة موضوعة... وإنّ ربا الجاهليّة موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله أنّه لا ربا، وإنّ أول ربا أبدأ به ربا عمّي العباس بن عبد المطلب.

وإنّ كلّ دم كان في الجاهليّة موضوع، وإنّ أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل)، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهليّة.

أيها الناس، فإنّ الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنّه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به بما تحقرون أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس إنّما النسيء زيادة في الكفر، يضلّ به الذين كفروا، يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا، ليوأطئوا عدّة ما حرّم الله فيحلّوا ما حرّم الله ويحرّموا ما أحلّ الله. وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حُرُم، ثلاثة متوالية ورجب مضر — الذي بين جمادى وشعبان —.

أيها الناس، اتّقوا الله في النساء، فإنكم إنّما أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمات الله، واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهنّ عندكم عوان لا يملكن لأنفسهنّ شيئا، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهنّ في المضاجع، واضربوهنّ ضربا غير مبرح، فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلا.

ألا إنّ لكم على نسائكم حقًا ولنسائكم عليكم حقًا:

فأما حقكم على نسائكم؛ فلا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكهونه بيوتكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن أظعنكم فعليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف.

فاعقلوا أيها الناس قولي، فإنّي قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبدًا: كتاب الله وسنة نبيّه.

أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلّمن أنّ كلّ مسلم أخ للمسلم، وأنّ المسلمين إخوة، فلا يحلّ لامرئٍ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، فلا تظلموا أنفسكم. اللهم هل بلغت؟ وستلقون ربكم فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض.

أيها الناس: إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد، كلّكم لأدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربيّ فضل على عجميّ إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

\* أولاً — المناسبة والظروف \*

\*\*\* ألقى الرسول ﷺ هذه الخطبة في حجة الوداع، يوم عرفة من جبل الرّحمة، في التاسع من ذي الحجة سنة 10 هـ، في نحو مائة وأربعين ألفاً من المسلمين، وربيعه بن أمية بن خلف يسمع الناس.

وفي ذلك اليوم نزل قوله عزّ وجلّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]

\*\*\* وسُميت "حجة الوداع"؛ لأنّه ﷺ ودّع الناس فيها، وأشهدهم على أنّه بلغ الرّسالة، وأشهد الله عليهم بأنهم شهدوا بذلك.

روى البخاريّ بسنده عن ابن عمر قال: «كنّا نتحدّث بحجة الوداع، والنبيّ ﷺ بين أظهرنا ولا ندرى ما حجة الوداع».

\*\*\* وهي الحجة الوحيدة التي حجّها ﷺ بعد الهجرة.

\* ثانياً — شرح المفردات \*

أعراضكم: العرض موضع المدح والذمّ في الإنسان، ويطلق على الشرف.

يومكم هذا: يوم عرفة التاسع من ذي الحجة.

شهركم هذا: ذو الحجة.

ربا الجاهليّة موضوع: باطل ومترك.

دماء الجاهليّة موضوعة: ساقطة لا أثر لها.

النسيء: تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر، كما كانت الجاهليّة تفعله من تأخير حرمة محرّم إذا دخل وهم في القتال إلى شهر صفر.

ليوأطئوا: ليوافقوا بتحليل شهر وتحريم آخر بدله.

6. وضع دماء الجاهلية: (وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دماكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب).
7. التحذير من الشيطان: لأنه سبب نشر العداوة بين الناس وإعادهم عن دين الحق. (فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه...).
8. الأمر بضبط الوقت وبيان الأشهر الحرم: (وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية ورجب مضر — الذي بين جمادى وشعبان —).
9. الوصية بالنساء: عن طريق: الأمر بحسن المعاشرة، وإعطائهن حقوقهن كاملة بغير ظلم. (ألا إن لكم على نساءكم حقا ولنساءكم عليكم حقا...).
10. الإرشاد إلى التمسك بالقرآن والسنة: حيث بين أنهما سبب حماية الأمة من الظلم والضياع. (وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا: كتاب الله وسنة نبيه).
11. التذكير بأخوة المؤمنين: فحرم على المسلم أن يأخذ مال أخيه دون رضاه أو يكفر ويقتل بعضهم بعضا. (وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ... فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض).
12. الإشارة إلى أساس التفاضل: فالناس كلهم من أب واحد، وأساس التفاضل بينهم هو طاعتهم لله وتقواهم له. (إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم...).

#### \* رابعا — الحقوق التي تضمنتها الخطبة \*

##### 1. حق الحياة:

تضمنت الخطبة حق الحياة، وهو مندرج في كلية حفظ الدين من ضروريات مقاصد الشريعة الإسلامية، فدماء الناس عليهم حرام، فلا يجوز لأحد الاعتداء على الحياة بأي صورة. واعتبر التعدي على نفس واحدة تعديا على الناس جميعا. قال الله -عز وجل-: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32]

[32]

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض: فقد حج رسول الله ﷺ في الشهر المخصص للحج، وهو ذو الحجة، بعدما كان العرب يجعلون حجهم كل عامين في شهر معين فيحجّون في ذي الحجة عامين ثم يحجّون في المحرم عامين وهكذا...

رجب مضر: سمي "رجب مضر"؛ لأن مضر كانت لا تغيره، بل توقعه في وقته، بخلاف باقي العرب الذين كانوا يغيرون ويبدلون في الشهور بحسب حالة الحرب عندهم، وهو النسب المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِي أُولَئِكَ إِلَهُهُمْ أَفَإِلَهُكُمْ إِلَهُهُمُ فَذَرُوا إِلَهُهُمُ إِنِّي أَنَا اللَّهُ الْعَلِيُّ﴾ سورة التوبة: 37.

وقيل: إن سبب نسبته إلى مضر أنها كانت تزيد في تعظيمه واحترامه فنسب إليهم لذلك.

وقال ابن كثير: فإنما أضافه إلى مضر، لبيّن صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما كانت تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم، فبين عليه الصلاة والسلام، أنه رجب مضر لا رجب ربيعة. عوان: العاني هو الأسير، وهو كل من ذل واستكان وخضع، والمعنى: تعينوهن.

غير مبرح: غير شديد.

فلا يوطنن فرسكم غيركم: لا تأذن الزوجة بالدخول عليها أحدا يكره الزوج دخوله.

#### \* ثالثا — تحليل نص الخطبة \*

أهم المحاور التي تضمنتها هذه الخطبة ما يلي:

1. الاستفتاح: بدأ النبي ﷺ خطبته بحمد الله والثناء عليه (خطبة الحاجة) من أجل تهيئة المتلقي لقبول ما يسمع. (الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه...).
2. حرمة الدماء والأعراض: حيث شبه حرمتها بحرمة الزمان والمكان، أي مكة وشهر ذي الحجة. (أيها الناس: إن دماءكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا...).
3. أداء الأمانة: حث النبي ﷺ على أداء الأمانة لبيان عظمتها في الإسلام. (فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها).
4. وضع ربا الجاهلية: (وإن ربا الجاهلية موضوع...). أما رأس المال فهو باق (ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون).
5. التربية بالقُدوة الفعلية: (قضى الله أنه لا ربا، وإن أول ربا أبداً به ربا عمي العباس بن عبد المطلب).



## 2. الحق في الأمن:

بتحريم الإسلام الاعتداء على النفس العرض والأموال، يكون قد وفّر الحماية للأفراد في نفوسهم وأعراضهم وممتلكاتهم، فلا يحقّ لأحد تعذيب غيره أو ترويعه أو اعتقاله دون وجه حقّ.

قال النبي ﷺ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ» مسلم.

وللأمن أهمية كبرى في استقرار المجتمعات وازدهارها، ويتمثل ذلك فيما يلي:

— الأمن على الدين والنفس والعقل والعرض والمال من مقاصد الشريعة المعتبرة.

— ممارسة الشعائر بكلّ أمان يدفع إلى الشعور بالثقة.

— الأمن على العرض يجعل المجتمع تسوده العفة والطهارة.

— الأمن على المال يشجّع الاستثمار ويعين على ازدهار الاقتصاد.

## 3. الحقوق الزوجية:

الأسرة هي اللبنة الأولى في المجتمع، إذا صلحت صلح المجتمع كلّهُ، وإذا فسدت فسد المجتمع كلّهُ، لذا أولى الإسلام الأسرة عناية كبيرة، وجعل لكلّ من الزوجين على صاحبه حقوقاً، تكفل -بأدائها- استقرار هذه الأسرة ودوامها.

(أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا).

قال الله -تعالى-: ﴿وَمَنْ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228]

ومن حقيق الزوجة على زوجها: المهر، والنفقة، والسكنى، والمعاشرة بالمعروف. ومن حقوق الزوج على زوجته: الطاعة بالمعروف وفي المعروف، وعدم الإذن لمن يكره دخول بيته.

## 4. الحق في المساواة والعدالة:

فالعدل الذي رفعت شريعة الإسلام رايته يتطلّب التسوية في المعاملة، وفي القضاء، وفي الحقوق وملكيّات الأموال، دون تمييز بعرق أو لون أو دين.

(وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ فَضْلٌ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُكِمَ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ النساء 58.

ولقد حمل الرسول ﷺ على محاولات التمييز بين الناس أمام القضاء والشريعة، وقد عرفت ذلك تفصيلاً في وحدة المساواة أمام أحكام الشريعة.

وعبر أبو بكر -رضي الله عنه- عن هذا الحق بقوله: «الضعيف فيكم قويّ عندي حتّى آخذ الحقّ له، والقويّ فيكم ضعيف عندي حتّى آخذ الحقّ منه إن شاء الله».

وفي رسالة عمر المشهورة لأبي موسى الأشعري: «آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتّى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك».

## \* خامساً - القيمة التاريخية والتشريعية والحضارية للخطبة \*

### 7 - القيمة التاريخية:

خطبة حجة الوداع تعتبر ذات قيمة تاريخية عظيمة، لما احتوته من إقرار القيم الإنسانية التي ترفع من قدر الإنسان وتحافظ على كرامته وتجنّب الظلم والاعتداء والاضطهاد.

فتكون الحضارة الإسلامية بهذا قد سبقت غيرها من الحضارات في مجال حقوق الإنسان، ولم تعلن الأمم متّحدة عن إعلان عالمي لحقوق الإنسان إلا سنة 1948م، حيث أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً باعتماد ونشر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

### 2 - القيمة التشريعية:

خطبة حجة الوداع ذات قيمة تشريعية كبيرة، حيث بيّنت الأصول العامة للتشريع الإسلامي، فقد جمعت أصول الدين، وأصول المال والمعاملات، وحقوق الإنسان، وحقوق المرأة، وكان فيها التّأصيل والتّطبيق، والتّربية والتّشريع. والتّسامح والتّوجيه، وأعلنت كمال الدين الإسلامي وتمام النعمة بالإسلام.

### 3 - القيمة الحضارية:

تمتّل خطبة حجة الوداع قيمة حضارية عميقة، وتطبيقاتها من طرف المسلمين الأوائل تصدروا العالم الأوّل.

ففي مجال الحقوق -مثلاً- نجد أنّ الإسلام قد ضمن (حقّ الحياة) حتّى قبل الولادة، وشرع عقوبات لكلّ من يعتدي على هذا الحقّ بأيّ نوع من أنواع الاعتداء، سواء ما كان يؤدّي إلى إزهاقها أم المساس بأمنها وكرامتها ورعايتها.

وهذا ما لم تصل إليه القوانين الوضعيّة، ولم يقتربوا من هذا الحقّ إلا بعد مئات السنين من مجيء الإسلام، عن طريق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، فقد جاء في المادّة الثالثة من الإعلان ما يلي: (لكلّ فرد حقّ في الحياة والحريّة وفي الأمان على شخصه).

والمتنبّع لمسار حقوق الإنسان في العالم يدرك أنّ الإنسان يعاني بشدّة من حرمان حقوقه، كحقّ الحياة الذي لم يعد له قيمة، حيث يموت مئات الأبرياء كلّ يوم بدعاوى مختلفة.

